# منهج أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام في تقرير توحيد الألوهية في القرآن الكريم

## دراسة تحليلية لفحوى دعوة الأنبياء على ضوء أقوال المفسرين

أ.د. عبدالله بن عبدالرحمن الميمان (*)

**المقدمة:**

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن توحيد القصد والطلب هو أحد نوعي التوحيد، اللذين تضمنتهما دعوة الأنبياء والمرسلين، وهو التوحيد الذي دعت إليه الرسل، وجاءت به الشرائع، وقامت لأجله سوق الحق، قال ابن القيم رحمه الله:

"التوحيد الذي دعت إليه رسل الله ونزلت به كتبه نوعان: توحيد في الإثبات والمعرفة، وتوحيد في الطلب والقصد..

**فالأول:** هو إثبات حقيقة ذات الرب تعالى وصفاته وأفعاله وأسمائه، ليس كمثله شيء في ذلك كله، كما أخبر به عن نفسه، وكما أخبر رسوله صلى الله عليه وسلم. وقد أفصح القرآن عن هذا النوع كل الإفصاح، كما في أول (الحديد) و(طه) وآخر (الحشر) وأول (الم تنزيل) السجدة، وأول (آل عمران) وسورة (الإخلاص) بكمالها، وغير ذلك.

---

(*) الأستاذ في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية – جامعة القصيم.

**والثاني:** وهو توحيد الطلب والقصد، مثل ما تضمنته سورة قل ياأيها الكافرون ، وقل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم (آل عمران: ٦٤)، وأول سورة (تنزيل الكتاب) وآخرها، وأول سورة (يونس) وأوسطها وآخرها، وأول سورة (الأعراف) وآخرها، وجملة سورة (الأنعام). "[١]

ولأهمية هذا النوع الثاني من التوحيد، ولعظيم قدره، آثرت أن أتتبع ما في كتاب الله الكريم من آيات ذكرها الله جل وعلا، تضمنت مخاطبات ومجادلات بين الأنبياء وأقوامهم، إما دفاعاً عن التوحيد، أو تحقيقاً له، أو نبذاً للشرك وصيانة لهذا التوحيد.

يقول الله جل وعلا: {وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥} [سورة الأنبياء:٢٥] وهذه القاعدة تشمل جميع أنبياء بني إسرائيل مثل إخوانهم الأنبياء الكرام، دعوا إلى التوحيد، وجاهدوا فيه، وبذلوا لتحقيقه المهج، وأقاموه فيمن بعثوا إليهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وإن كانت العقائد التي طالها التحريف والكذب على أنبياء الله ورسله قد حرفت أو غيرت شيئاً من ذلك، فإن كتاب الله المحفوظ بين ذلك أجمل البيان، وأفصح عنه حق الإفصاح، ولم يترك من تفاصيل دعواتهم ما يحتاجه الناس إلا ووضحه.

قال الطبري رحمه الله في تفسير الآية: "يقول تعالى ذكره: وما أرسلنا يا محمد من قبلك من رسول إلى أمة من الأمم إلا نوحي إليه أنه لا معبود في السماوات والأرض، تصلح العبادة له سواي فاعبدون يقول: فأخلصوا لي العبادة، وأفردوا لي الألوهية"[٢].

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين – (٣ / ٤٤٩).

(٢) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١٨/ ٤٢٧).

**إشكالية البحث:**

يفترض المنهج البحثي الحديث أن ثَمّةَ إشكالية تتناولها البحوث المحررة، ولذا كان لهذا البحث مهمة الإجابة عن إشكالية ماهية مهمة رسل بني إسرائيل عليهم السلام التي وردت في كتاب الله تعالى؟ وتحديداً ماهية منهجهم في تقرير توحيد الألوهية؟ وهي وإن كانت نتجية بدهية عند أهل السنة والجماعة، وتتلخص عندهم في تحقيق الإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، إلا أنها قد تكون عند غيرهم من بعض الطوائف مهمة غير واضحة المعالم، فحل الإشكال فيها إعادة تحليل المنهج النبوي لأولئك الأنبياء الكرام على ضوء الرسالة الربانية في كتاب الله الكريم هو من الأعمال البحثية التي تطمح لها الهمم .

**حدوده :**

للبحث في هذا الموضوع افترضت حدوداً قد تكون أنسب في حصر المادة وتحقيق أهداف دراسة هذه الشريحة فيها، أولها: أن أقتصر مما ورد من مهمة على الرسل من بني إسرائيل في كتاب الله الكريم وتوضيح ذلك من خلال ما قرره المفسرون رحمهم الله، دون التطرق لما ورد في السنة والسير، ودون أن أستقصي منهج غيرهم من الرسل عليهم السلام .

والثاني اقتصرت في البحث على استقصاء منهجهم في توحيد الألوهية، دون غيره من أصول التوحيد أو فروع الشريعة.

**الدراسات السابقة:**

للباحثين جهود مشكورة في جمع ما تفرق في هذا الباب أو تفريق ما جمع فيه، إلا أنني لم أجد من تناول هذا الموضوع وأفرده بجمع شتات مسائله مع نفائس أهل العلم في تعاليقهم على كتاب الله الكريم، وحيث رأيت أن ذلك يجمع فضل ما سرده القرآن من التوحيد، وكون ذلك فيما يقصه تعالى عن أنبيائه، وكونه في باب التوحيد، وكون من يعلق عليه ويشرحه ويستخرج كنزه أهل العلم، فاجتمع فيه

فضل القائل جل وعلا، والمقول عنه، والقول الكريم، والشارح للقول، وذلك فضل الله يؤتيه من شاء.

والجدير تدوينه أن من سبقني من الباحثين مثل الدكتور: محمد أحمد ملكاوي في كتابه عقيدة التوحيد في القرآن الكريم تناول جزءاً كبيراً من مواضيع التوحيد في كتاب الله الكريم(١)، ولكن لم أجد فيه ما يتقاطع مع هذا الموضوع، خاصة أن الدكتور تطرق كثيراً للمنهج القرآني تحليلاً وتطبيقاً، وفي المقابل خصصت بحثي هذا فقط لفحوى دعوة التوحيد في باب الألوهية من الأنبياء في تلك الحقبة فحسب.

هذا ولهذا البحث غاية لا تخفى على المتأمل للسياق القرآني، فالقرآن الكريم أفصح وبوضوح عن هذ وأن أساسه ولبه هو توحيد الله بأفعال العباد، وكل ما سوى ذلك هو غاية وسيلة للوصول إلى هذا التوحيد.

والمقصود من هذا البحث هو إبراز سياقات القرآن الكريم في قصص أنبياء بني إسرائيل، وبيان أنها تختط منهجاً واحداً متسقاً مع ما سبقهم ومن تبعهم من الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، وتصب في محيط الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له مع نبذ الشرك الذي كان في زمان كل نبي منهم أياً كان نوعه.

**الأهداف العامة للبحث:**

١- استقصاء منهج أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام في تحقيق توحيد الألوهية.

٢- إبراز اهتمام أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام بقضية توحيد الألوهية.

٣- صياغة ذلك المنهج ضمن سياق مناهج الأنبياء قبلهم وبعدهم وبيان اتساقه.

٤- إخراج صورة موحدة لمنهج أولئك الأنبياء في تقرير توحيد الألوهية متوافقة مع ما دعا إليه خاتمهم عليهم الصلاة والسلام.

---

(١) طبعته مكتبة دار الزمان لأول مرة في عام ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

**أهمية البحث:**

تكمن أهمية هذا البحث، فيما يلي:

١– إبراز مهمة الرسل التي بعثوا لتحقيقها من خلال دراسة لمناهج أكثر الرسل ذكراً في النصوص.

٢– تعريف أهل الكتاب بما ثبت في القرآن الكريم من الدعوة إلى توحيد الألوهية والتي ناء بحملها أنبياء بني إسرائيل.

٣– وضع صورة عامة لتلك الجماعة الكريمة من الأنبياء عليهم السلام تبين حقيقة دعوتهم التي أرسلوا من أجلها.

٤– إجلاء الصورة واضحة لدعوة الأنبياء عليهم السلام وإبراز تقريرها لتوحيد الألوهية وبيان اتساقها تحت منهج التوحيد الخالص لله جل وعلا.

**منهج البحث:**

تتبعت ما ورد في كتاب الله تعالى من الدعوة إلى تحقيق توحيد الألوهية من قِبَلِ أنبياء بني إسرائيل ابتداءً من يعقوب عليه السلام إلى دعوة المسيح عليه السلام.

ثم جمعت ما تناوله المفسرون في تفسير تلك الآيات المتعلقة بالتوحيد، لبيان معناها وتحليل مقتضاها، واستنباط بلاغتها، وفهم ما وراء النص من اللطائف والحكم، مما يشير بمباشرة أو غير مباشرة إلى عظم دعوة التوحيد.

هذا وقد قصرت حدود البحث على الأنبياء من بني إسرائيل، ولم أستقص ما ورد فيه الخلاف في زمنه أو من هو نبيٌّ ممن اختلف فيه، إذ هذا ليس محل بحث هذه الاختلافات التي قد لا يقطع بنتيجتها من جهة، ومن جهة أخرى فالمقصود بهذا البحث استقصاء الدعوة إلى التوحيد عند أنبياء بني إسرائيل أولئك الذين هداهم الله.

## الهيكلة العامة للبحث

**مقدمة:** تشتمل على تعاريف بأنبياء بني إسرائيل، وتشتمل على التعريف بتوحيد الألوهية، كما تحتوي على أهداف الموضوع والخطة البحثية.

- **الفصل الأول:** سمات منهج الأنبياء قبل موسى عليه الصلاة والسلام في تقرير توحيد الألوهية.
- **الفصل الثاني:** سمات منهج موسى عليه الصلاة والسلام في تقرير توحيد الألوهية.
- **الفصل الثالث:** سمات منهج الأنبياء بعد موسى عليه الصلاة والسلام في تقرير تويحد الألوهية.
- **خاتمة:** فيها المستخلص من البحث.
- ثم فهرس المصادر والمراجع.

## الفصل الأول

## سمات منهج الأنبياء قبل موسى عليه السلام

يرتبط تاريخ بني إسرائيل في أول سورة من كتاب الله الكريم بالتوحيد، حيث كانت الوصية التي وصى أول ابن له هي توحيد الله وحده لا شريك له، يعقوب عليه السلام جمع بنيه حين حضرته المنية: {أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾} [سورة البقرة:١٣٣]

فختم حياته عليه السلام بالتأكد والتأكيد أن حياتهم ستكون لعمارة الأرض بالتوحيد، توحيد الله الذي دان به آباؤهم من قبل، وهي مهمتهم بعدهم عليهم السلام.

وهذه الآية نزلت في دحض مزاعم اليهود الذين سموا ديانة الأنبياء باليهودية زوراً وبهتاناً، فإنهم قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: "ألم تعلم أن يعقوب حين مات أوصى بنيه باليهودية، فنزلت الآية"(١).

وعموم لفظها لا يخصصه سبب نزولها، فهذا "الخطاب لليهود والنصارى الذين انتحلوا الأنبياء صلوات الله عليهم ونسبوهم إلى اليهودية والنصرانية، فرد الله تعالى عليهم وكذبهم، وأعلمهم أنهم كانوا على الحنيفية والإسلام، وقال لهم على جهة التقريع والتوبيخ: أشهدتم يعقوب وعلمتم بما أوصى فتدعون عن علم؟، أي لم تشهدوا بل أنتم تفترون"(٢).

---

(١) معالم التنزيل ١/١٧١.

(٢) تفسير ابن عطية ١/ ٢١٣.

قال الطبري في معناها: "نعبد معبودك الذي تعبده، ومعبود آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق، {إلها واحداً} أي: نخلص له العبادة، ونوحد له الربوبية، فلا نشرك به شيئا، ولا نتخذ دونه ربا " (١).

وهذا الميثاق الذي أخذه يعقوب على بنيه هو ميثاق عظيم، ذكر الله به أهل الكتاب الذين ينتمون إلى هذا النبي الكريم، فذكرهم بوصية من ينتمون إليه.

والآية أصل عظيم في التوحيد وتجنب تحري غير وجه الله في الأعمال الصالحة: "وكأنه دعاهم أن لايتحروا في أعمالهم غير وجه الله – عز وجل– ولم يخف عليهم الاشتغال بعبادة الأصنام، وإنما خاف أن تشغلهم دنياهم، ولهذا قيل: " ما قطعك عن الله فهو طاغوت "(٢).

ثم سار بنوه من بعده على منهج التوحيد الذي ما يزال ينقدح ويتسرب إليه الشرك إذا خبت دعوات الموحدين، حتى فشا مرةً أخرى في أهل مصر، في زمن ابنه يوسف عليه السلام، ولهذا كان يعظ من كان معه في السجن ويوبخهم عن شركهم بقوله: {يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩} [سورة يوسف:٣٩]، وهذا الرد من يوسف عليه السلام يدل على فشو الشرك في أهل مصر في ذلك الوقت، وهذ السياق القرآني البليغ: "إِنَّمَا هُوَ فِي سِيَاقِ الرَّدِّ عَلَى مَنْ عَبَدَ مَعَهُ غَيْرَهُ وَأَشْرَكَ فِي إِلَهِيَّتِهِ، فَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْ تِلْكَ الْآلِهَةِ كَقَوْلِهِ: {قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ٥٩} [سورة النمل:٥٩]" (٣).

---

(١) تفسير الطبري ٣/٩٩-١٠٠.

(٢) تفسير الراغب الأصفهاني (١/ ٣٢٠).

(٣) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (ص: ٤٣٢).

ويظهر أن الشرك الذي انتشر في أهل مصر في ذلك الوقت هو شرك الألوهية، وليس إنكار الرب جل وعلا الذي حصل لاحقاً في زمن فرعون، إذ: "إطلاق الأرباب {يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩} [سورة يوسف:٣٩] وقوله: {وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۚ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ٨٠} [سورة آل عمران:٨٠] لأن المعبود يسمى رباً، وهذا مما لا خلاف فيه بين المفسرين"(١)

"وهذا ليس فيه تصريح أنهما كانا يطلقان لفظ الأرباب على الأصنام حتى يلزم إنكار توحيد الربوبية، بل يحتمل أن يكون المقصود بيان بطلان ما كانوا عليه من عبادة الأصنام بأن القول بالأرباب المتفرقة باطل قطعاً لا يتأتى إنكاره من أحد من أهل العقل، وما لا يصلح للربوبية لا يصلح للعبادة، دل عليه قوله تعالى : {مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٠} [سورة يوسف:٤٠]" (٢).

قال ابن تيمية: "وَالْإِشْرَاكُ لَا يَكُونُ إلَّا مِنْ مُقِرٍّ بِاَللَّهِ، وَإِلَّا فَالْجَاحِدُ لَهُ لَمْ يُشْرِكْ بِهِ. قِيلَ: لَمْ يَذْكُرْ اللَّهُ جُحُودَ الصَّانِعِ إلَّا عَنْ فِرْعَوْنَ مُوسَى، وَأَمَّا الَّذِينَ كَانُوا فِي زَمَنِ يُوسُفَ فَالْقُرْآنُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا مُقِرِّينَ بِاَللَّهِ وَهُمْ مُشْرِكُونَ بِهِ، وَلِهَذَا كَانَ خِطَابُ يُوسُفَ لِلْمَلِكِ وَلِلْعَزِيزِ وَلَهُمْ: يَتَضَمَّنُ الْإِقْرَارَ بِوُجُودِ الصَّانِعِ" (٣).

**

(١) الضياء الشارق (ص: ٥٠١).

(٢) صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان ٤٥٣.

(٣) مجموع الفتاوى ٧/ ٦٣٠ بتصرف واقتضاب.

## الفصل الثاني

## سمات منهج موسى عليه السلام في توحيد الألوهية

بدأت دعوة موسى عليه السلام لفرعون وقومه بني إسرائيل بإرسال الله تعالى له ليلة الوادي المبارك، حيث أمره الله عز وجل بما يأمر به عباده المرسلين من دعوة التوحيد إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وتجلية ما شاب الأقوام من شوائب الشرك، قال تعالى موحياً إليه عليه السلام: {إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾} [سورة طه:١٤] وهذه دعوة التوحيد التي أمره الله بها، يقول المفسرون في معنى: "بدلٌ من ما يوحى ولا ريب في أن اختيارَه عليه الصلاةُ والسلامُ ليسَ لهذا الوحي فقط، والفاء فقوله تعالى: {فاعبدني} لترتيب المأمورِ به على ماقبلها، فإن اختصاص الألوهية به سبحانه وتعالى من موجبات تخصيصِ العبادة به عز و جل "[1].

وقد استجاب الله دعوة نبيه الكريم إذ شفع لهرون بوزارته، فيالها من شفاعة عظيمة، بلغت أخاه مراتب الأنبياء، ودعا ربه مع تلك الوزارة بأن يشد به أزره ويشركه في أمره، فبلغ مناه، وتلك الدعوات رتب عليها موسى عليه السلام غاية عظيمة في تحقيق التوحيد فقال: {كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾} [سورة طه:٣٣-٣٤]، و{كثيراً}: في الموضع نعتٌ لمصدر محذوف أو زمانٍ محذوف أي ننزّهك عما لا يليق بك من الصفات والأفعالِ التي منْ جُملتها ما يدّعيه فرعونُ الطاغية ويقبله منه فئته الباغية من الشركة في الألوهية، ونصفك بما يليق بك من صفات الكمال ونعوت الجمال والجلال "[2].

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٦/ ٨).

(٢) السابق (٦/ ١٣).

ولما أمر قوم فرعون بالتوحيد أنكر فرعون الربوبية من أصلها فقال فيما حكى الله عز وجل عنه: {قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾} [سورة الشعراء:٢٣].

وهذا الإنكار يأتي في سياق محاولته لإيهام الملأ من قومه –تحت سوط الكبر– أن النبوة مجرد دعوى لا قيمة لها من شخص لهم عليه نعمة وفضل، فلما فصل موسى عليه السلام لفرعون دلائل الربوبية في قوله تعالى: { قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ [سورة الشعراء: ٢٤] عاد فرعون فأنكر، وذلك بقوله لقومه: {قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾} [سورة الشعراء:٢٥]، ثم عاد موسى فأثبت له بقوله: {قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾} [سورة الشعراء:٢٦] فعاد فأنكر، حتى غلب فرعون وفلت من لسانه التهديد بدل الجدال العقلي {قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾} [سورة الشعراء:٢٩]، والتسلسل المنطقي في هذه المجادلة بين نبي الله عليه السلام وبين أكبر الطغاة المجرمين الذين عرفهم التاريخ ليست لعدم معرفته أن الله هو الرب الخالق المصور، وإنما لأن موسى عليه السلام عرف أن الحق لن يغيره اتهام بالباطل، ولا تهديد بالسجن، ولا تشويه للسمعة بإسماع الناس كلامه ومحاولة إقناعهم أنه مخطئ.

وذلك النوع من الشرك الذي مارسه فرعون هو شرك التعطيل، حيث عطل المصنوع عن الصانع، وعطل الصانع عن أفعاله، وذلك بتعطيل خصائص الربوبية وإنكار أن يكون الله رب العالمين، فشرك فرعون الذي عطل الربوبية

ظاهراً؛{وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾} [سورة غافر:٣٦] (١).

يقول ابن تيمية رحمه الله: " فلما أنكر الصانع وكانت له آلهة يعبدها بقي على عبادتها، ولم يصفه الله تعالى بالشرك، وإنما وصفه بجحود الصانع وعبادة آلهة أخرى. والمنكر للصانع منهم مستكبر كثيرا ما يعبد آلهة؛ ولا يعبد الله قط؛ فإنه يقول: هذا العالم واجب الوجود بنفسه. وبعض أجزائه مؤثر في بعض ويقول إنما انتفع بعبادة الكواكب والأصنام ونحو ذلك"(٢).

تلك المجادلة هي بداية التاريخ العقدي للدعوة إلى توحيد الله لا شريك له في بني إسرائيل، والمتأمل في هذه الدعوة يجد أنها دعوة فريدة لا يوجد نظيرها في القرآن الكريم سوى دعوة إبراهيم عليه السلام للذي حاجه في ربه فقال:

{أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾} [سورة البقرة:٢٥٨]، فهما سواء في إنكار الربوبية، وسواءٌ في موجب إنكارها وهو الكبر، وسواءٌ في أن كليهما بهت بمجرد الدليل العقلي.

---

(١) انظر: المفيد في مهمات التوحيد ١١٢، للدكتور عبد القادر بن محمد عطا صوفي، دار الأعلام، الطبعة: الأولى ١٤٢٢هـ- ١٤٢٣هـ.

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٦٣١).

ثم توالت بعد ذلك أحداث الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له في قوم موسى عليه السلام، ويمكن تجلية تلك الأحداث في صورة مواضع لبيان التوحيد والتحذير من نقيضه، ويمكن تفصيلها كالتالي:

في المرحلة الأولى من الدعوة النبوية لفرعون وقومه كان الجدل بين موسى وفرعون موجهاً إلى إثبات الربوبية بشتى الأدلة المحسوسة والمعقولة والفطرية، وإظهار الآيات المعززة لموسى عليه السلام لجلاء الربوبية، هذا هو الأغلب، ولما كانت تلك الدعوة لإثبات الربوبية قوبلت بالاستكبار والعناد من فرعون وقومه، لا تكاد تجد إلا القليل من الآيات التي تفصل دعوته لأولئك في الألوهية، وحيثما حصل كان اتباع ذلك بتطبيق ما يقتضيه من توحيد الألوهية من سجود وتسبيح وغير ذلك، ومثال ذلك لما اشتدت المناظرة بين موسى والسحرة وسحروا أعين الناس، وحيث كان سحرهم شركاً بالله عز وجل، وكانوا يقسمون بعزة فرعون، مستعينين بتلك العزة الخاذلة على باطلهم، قالوا: {فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾} [سورة الشعراء:٤٤].

جاء موطن التوحيد، فأمره الله بإلقاء عصاه ولما لقفت ما أفكوا، وقع الحق فانقلب السحر، وقال تعالى: {وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾} [سورة الأعراف:١٢٠] حيث علموا أن هذا ليس بسحر وإنما هو حقٌّ وصدق، وليس تخييلاً وإنما واقع، فربط سبحانه ما أرسل به موسى من الآيات ببيان أنها أعطيت لموسى عليه السلام ليعلم من أمامه أنه مرسل من عند الله، ولم يكن انقلاب السحر على الساحر هو مجرد خوف السحرة، أو رهبتهم، بل كان دحض الباطل بجملته، وقذف الحق به، وإيمان مفتريه.

كما كانت دعوى فرعون غريبة، حيث يرى أن تحقيقه للألوهية: "أي وإني لأظن موسى كاذباً في ادعائه إلهاً دوني، وإنما أفعل ما أفعل لإزاحة العلة. وهذا يوجب شك فرعون في أمر الله. وقيل: إن الظن بمعنى اليقين أي وأنا أتيقن أنه كاذب، وإنما أقول ما أقوله لإزالة الشبهة عمن لا أتيقن ما أتيقنه"(١).

وكان مُكْث موسى عليه السلام في قومه داعياً للتوحيد، مصرفاً لأوجه تلك الدعوة، ومتكلفاً كل صعيبة قد تنجيهم من براثن الشرك، وقصته تناولها المفسرون بتصاريف التأمل، وعكفوا عليها عكوف المستخرج للؤلؤ والمرجان، خاصةً جداله مع فرعون وقومه قبل الغرق.

فمما ذكره الله جل وعلا عنه على رأي بعض أهل التأويل قوله تعالى:

{ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾} [سورة غافر:٤١].

فكأنه يسألهم عن هذه الحال: أدعوكم إلى الخير وتدعونني إلى الشر؟! {تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾} [سورة غافر:٤٢]، ونفى المعلوم وهو ربوبية ما يزعمون إياه شريكا بطريق الكناية وهو من باب نفى الشيء بنفي لازمه، وفيه إشعار بأن الألوهية لا بد لها من برهان موجب للعلم بها(٢).

وكان مكثه بين ظهرانيهم هو حياة التوحيد، والدعوة إليه بشتى الوسائل والطرق، فكان يدعوهم للعمل الصالح الذي رأسه التوحيد، وينهاهم عن السيئات التي جماعها الشرك، حيث بَيَّنَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: "مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً" يَعْنِي الشِّرْكَ" فَلا

(١) تفسير القرطبي (١٥/ ٣١٥).

(٢) انظر: روح المعاني ١٨٧/٨.

يُجْزى إِلَّا مِثْلَها" وَهُوَ العذاب، وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً" قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَهُوَ مُؤْمِنٌ" مُصَدِّقٌ بِقَلْبِهِ لِلَّهِ وَلِلْأَنْبِيَاءِ.

وكان يهدم دعوتهم للشرك بشتى الوسائل المنطقية، ثم يعقبها بالتحذير من مغبة جرح التوحيد، فكان يقول:

{لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾} [سورة غافر:٤٣]

فتأولوا معنى الدعوة على أن فرعون كان يدعو الناس إلى عبادة الأصنام، ثم البقر، ثم إذا شاخت ذبحوها واستجلبوا صغارها واستبدلوها، ثم لما طال عليه الأمد قال: أنا ربكم الأعلى.

ومن تأويلهم أن معنى: ليس له دعوة أي ليس له شفاعة، ومنها أنه ليس له دعوة توجب له الألوهية، وهذا الأخير من أجمل ما قيل في تفسير الآية(١).

ثم بدأت دعوة توحيد الألوهية تتجلى بصورها الكبيرة والمتنوعة بمجرد انتهاء بني إسرائيل من مرحلة عبور البحر، وظهرت معالم صيانة التوحيد والحفاظ عليه بصور شتى تفصح عن الوسع الذي استفرغه نبي الله موسى وأخوه هرون عليهما السلام في تصفية التوحيد، وتجريده لله تعالى، وصد بني إسرائيل عن شوائب الشرك، ومن تلك الصور ما حصل لبني إسرائيل بعد عبورهم {وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾} [سورة الأعراف:١٣٨]، وهذا الخلل في التوحيد جعل نبي الله موسى عليه السلام يبادر

(١) انظر: تفسير القرطبي ١٥ /٣١٧ .

إلى وأده فقال: {إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٣٩} [سورة الأعراف:١٣٩].

وكانوا يعبدون أصناماً على صور البقر فلهذا أثار ذلك شبهة لهم في عبادتهم العجل بعد ذلك"[1]، ومتبر أي مدمر مهلك، فأخبرهم بأن هذا الدين الذي هؤلاء القوم عليه هالك مدمّر لا يتمّ منه شيء[2].

ثم لما نفض عنهم غبار الشرك، ونقض جزء الشريك، فخلى، بدأ ببسط التوحيد، لرب العبيد فحلى فقال: {قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٤٠} [سورة الأعراف:١٤٠] فوبخهم أشد التوبيخ على محاولة تحريف مسيرة استحقاق الواحد للألوهية الحقة المطلقة، وهو الذي نجاهم وفضلهم على العالمين وما زال عهدهم قريبًا يستحضر شاهدَ مياه البحر الذي أطبق على عدو التوحيد فرعون.

ثم تلت ذلك الأحداث الأخرى المتعلقة بصيانة موسى عليه السلام للتوحيد، وأعظم تلك الأحداث لما جاء موسى ميقات ربه، وأعطاه الشريعة والألواح، كانت المصيبة التي حصلت في غيابه وهي عبادة بني إسرائيل للعجل: {وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ١٤٨} [سورة الأعراف:١٤٨].

إذ لما لم يستجب لهم موسى في حادثة الأنواط الأولى، بقيت تلك في نفوسهم، وتعلقوا بها، فلما غاب أخذ السامريُّ الفرصة المهيأة لعدم وجود موسى

(١) تفسير ابن كثير / دار طيبة – (٣ / ٤٦٧).

(٢) انظر: فتح القدير للشوكاني – (٣ / ٨٥).

عليه السلام، وقد أخبره الله بذلك قبل الرجوع إلى قومه: {قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾} [سورة طه:٨٥] ولما رجع موسى وسأله عن ماهية فعله، شرح له: {قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾} [سورة طه:٩٦].

غلب هارون على أمره عليه السلام وخشي على بني إسرائيل الفرقة، إذ اتخذوا العجل إلهاً ضاربين بجميع ما أرسل لهم به النبيان عرض الحائط، وأخلوا بالفحوى التي أخرجتهم في الأصل من دارهم، وعبرت بهم البحر، وبوأتهم الأرض، فلله كم هم ظلمة؟! ولله كم هم جحدة!.

ثم في ختام تلك الأحداث قال موسى مبيناً البطلان ومقرراً حصر التوحيد الحق:

{إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾} [سورة طه:٩٨].

قال ابن الجوزي رحمه الله: "وقد حسن إبليس لعنة الله لأقوام عبادة القمر، ولآخرين عبادة النجوم، قال ابن قتيبة: وكان قوم في الجاهلية عبدوا الشعرى العبور وفتنوا بها، وكان أبو كبشة – الذي كان المشركون ينسبون إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم – أول من عبدها، وقال: قطعت السماء عرضاً ولم يقطع السماء عرضاً غيرها، وعبدها وخالف قريشاً، فلما بعث رسول الله ودعا إلى عبادة الله وترك الأوثان قالوا: هذا ابن أبي كبشة أي: شبهه ومثله في الخلاف كما قالت بنو إسرائيل لمريم: يا شبيهة هارون في الصلاح "إلى أن قال: وزين إبليس لعنه الله لآخرين عبادة الملائكة، وقالوا هي بنات الله تعالى، تعالى الله عن ذلك، وزين لآخرين عبادة الخيل والبقر، وكان السامري من قوم يعبدون البقر؛ فلهذا صاغ

عجلا، وجاء في التعبير أن فرعون كان يعبد تيسا، وليس في هؤلاء من أعمل فكره ولا استعمل عقله في تدبير ما يفعل. نسأل الله السلامة في الدنيا والآخرة."[1].

ثم قبيل وفاته عليه السلام في جهاده الطويل مع بني إسرائيل، أمرهم بالتوكل على الله تعالى الذي منحهم كل ما سبق وهم يتمادون في غيهم ويمارسون القدح في التوحيد كلّ فترة تمر عليهم، فقال: {يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ٢١} [سورة المائدة:٢١].

فكان الجواب المشاكس من بني إسرائيل: {قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّٰرِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ٢٢} [سورة المائدة:٢٢]، وهذا خللٌ كبير في التوكل مع الأحداث القريبة التي مرت بهم وكثرة الآيات التي أراهم الله إياها، سواءً إبان معاصرتهم لفرعون أو إبان عهد العبور.

ولذا فطن مؤمنوهم إلى هذا الخلل وبادروا إلى تصحيحه: {قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣} [سورة المائدة:٢٣].

فعلقا الغلبة بالتوكل وفعل السبب لا الكثرة والجبروت !

(١) تلبيس إبليس بتصرف يسير – (١ / ٥٨).

وهذا دقيق يجب الانتباه إليه، يقول الشيخ سليمان بن عبدالله التميمي: "أمر قومه بدخول الأرض المقدسة التي كتبها الله لهم ولا يرتدوا على أدبارهم خوفا من الجبارين بل يمضوا قدماً لا يهابونهم ولا يخشونهم متوكلين على الله في هزيمتهم مصدقين بصحة وعده لهم إن كانوا مؤمنين.

وفي الآية الأخرى جعل دليل صحة الإسلام التوكل، وقالوا على الله فليتوكل المؤمنون، فذكر اسم الإيمان هنا دون سائر أسمائهم دليل على استدعاء الإيمان للتوكل وأن قوة التوكل وضعفه بحسب قوة الإيمان وضعفه"(١).

قال الشيخ سليمان بن عبدالله آل الشيخ :"أكمل لنا ديننا وأتم علينا نعمته ورضي لنا الإسلام ديناً وأمرنا أن نتبع صراطه المستقيم ولا تتبع السبل فتفرق بنا عن سبيله، وجعل هذه الوصية خاتمة وصاياه العشر التي هي جوامع الشرائع التي تضاهي الكلمات العشر التي أنزل الله على موسى في التوراة وإن كانت الكلمات التي نزلت على نبينا صلى الله عليه وسلم أكمل وأبلغ وأتم"(٢).

يقول الشيخ عبد الرحمن بن حسن رحمه الله: "أي دليل أصرح وأوضح وأبين من هذه الأدلة على أن الرسل من أولهم إلى آخرهم إنما بعثوا بإخلاص العبادة لله تعالى والنهي عن عبادة كل ما سواه، وهذا هو التوحيد الذي جحدته الأمم وهو الذي خلق من أجله الخليقة من الثقلين كما قال تعالى {وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾} [سورة الذاريات:٥٦]، قال علي– رضي الله عنه – في هذه الآية إلا لآمرهم أن يوحدون" (٣).

---

(١) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد بتصرف يسير – (١ / ٤٣٨).

(٢) التوضيح عن توحيد الخلاق في جواب أهل العراق ص ٤١، سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب (المتوفى: ١٢٣٣هـ)، الناشر: دار طيبة، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

(٣) المطلب الحميد في بيان مقاصد التوحيد (ص: ١٠٤).

## الفصل الثالث

## سمات منهج الأنبياء

## بعد موسى عليه الصلاة والسلام في الألوهية

لم تكن دعوات الأنباء بعد موسى عليه السلام بدعاً من الدعوات، ولا رسالتهم بدعاً من الرسالة، بل ولم يك نبي قبله ولا بعده إلا وكانت دعوته التوحيد، توحيد الألوهية، إفراد الله بالعبادة، فإن كان ثمّ خلل فيمن دعي إليهم في المعرفة والإثبات صانه ثم دعا إلى تحقيقه بالألوهية، فهذه دعوة الرسل أجمعين، يصونون المعرفة والإثبات، ثم يقررون الألوهية، ثم يشرعون الشرائع لتحقيق التوحيد، ولذا كانت الشرائع تختلف باختلاف الحال والزمان لخصوصية من بعث إليهم، حتى أفضى الزمان إلى سيد الأنبياء والمرسلين الذي كانت رسالته عامة ونبوته خاتمة، فكان المقتضى صلاح شريعته لكل زمان ومكان، وهذه القاعدة الجليلة التي قررها جل وعلا في كتابه: {وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥} [سورة الأنبياء:٢٥]، وإذا تقرر ذلك فقد تتابع الأنبياء بعد موسى عليه السلام في بني إسرائيل، حيث فضل الله بني إسرائيل بأمور كثيرة على العالمين في الحكم والنبوة وكثرة الأرزاق وغيرها، فقال جل وعلا: {وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦} [سورة الجاثية:١٦].

وحيثما قرأت في كتاب الله عز وجل عن بني إسرائيل، ستجد أن أنبياءهم الكرام عليهم السلام كانوا مجاهدين فيهم بإقامة التوحيد لله جل وعلا، على اختلاف شعبه وتنوع مظاهره، وتجد في كتاب الله من هذه الأحوال التالي:

**١– صيانة الاعتقاد القلبي بحسن الظن بالله والثقة به وحسن التوكل عليه:**

بعد وفاة موسى عليه السلام دخل بنو إسرائيل مرحلةً أخرى من مراحل الحياة مع الأنبياء، حيث بقوا في التيه أربعين سنة، بعد تحريم الأرض المقدسة عليهم، قال تعالى {قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾} [سورة المائدة:٢٦]، وهذه العقوبة رفعت عنهم بعد دخولهم الأرض المقدسة.

لكن أحداث الدخول كانت عظيمة، بدأت بطلب بني إسرائيل من نبيهم بعث ملك عليهم ليجتمعوا ويقاتلوا لينتصروا على الجبابرة، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾} [سورة البقرة:٢٤٦]

وقد حصل أول الخلل في التوحيد حين شرع لهم نبيهم تحريم الشرب من النهر لحكمة يعلمها الله تعالى، فقال : {فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ

بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾} [سورة البقرة:٢٤٩].

وهنا يتبين حسن الظن بالله تعالى، وقوة الثقة به، وجليل مقدرة الله تعالى في خرق الأسباب، ونصر الفئة القليلة على الكثيرة، مع قوة الإيمان، ومعية الصبر، ولا شك أن حسن الظن بالله من شعب الإيمان العظيمة التي لا يبلغها كلٌّ أحد، وسوء الظن به جل وعلا من دركات الظلم، يقول الله تعالى: {وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾} [سورة فصلت:٢٣].

ثم حرم بنو إسرائيل وقت التيه من دخول القدس، حتى مات موسى عليه السلام قريبًا من الأرض المقدسة، وتاهوا في الأرض أربعين سنة، ثم حصل بعد ذلك دخولهم القرية.

**٢- الأمر بالطاعة والخضوع في القول والفعل لله جل وعلا:**

حيث تتابعت الأحداث بعد ذلك، أُمِروا فحرفوا ما أمروا به من التوحيد، إبان دخول القرية، حيث قال تعالى : {وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾} [سورة البقرة:٥٨].

أمرهم الله حين دخول بيت المقدس بالعبادة، شكراً له وخضوعاً لجلاله الذي رفع العقوبة، وأمدهم بنعمة الفتح على الجبارين.

وهنا تجد أن الله أمرهم بالطاعة له جل وعلا، سجوداً، وطلباً للمغفرة، فهذا أمر بالتوحيد العملي والقولي تحقيقاً لعبادته وحده لا شريك له، فحرفوهما استكباراً واستهتاراً بدعوة التوحيد، فدخلوا على أقفائهم وحرفوا طلب المغفرة لطلب الأكل [١].

{فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ٥٩} [سورة البقرة:٥٩]

قال السفاريني رحمه الله: "ومن تأمل حال بني إسرائيل رآهم قد أمروا بقول حطة، فقالوا: حنطة، وقيل لهم: ادخلوا الباب سجدا، فدخلوا زحفا، وآذوا نبيهم فقالوا: آدر "[٢].

**٣- بذل الشكر مقابل النعم متمثلاً في توحيد الله وحده عبادة وخضوعاً:**

وتسخير الجبال يدل على عظمة الرب الذي سخرها واستحققه للعبادة وحده وهو معنى دقيق جليل، قال أبو حيان: "وجعل الجبال بمنزلة العقلاء الذين إذا أمرهم أطاعوا وأذعنوا وإذا دعاهم سمعوا وأجابوا؛ إشعارا بأنه ما من حيوان وجماد

---

(١) الأقوال في القرية أنها بيت المقدس أو أريحا، أما معنى الركوع فهو على أضرب:

–عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقول في قوله تعالى: ((أي ركعاً)) وروى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله {وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً} قال: ((ركعاً من باب صغير)) ورواه الحاكم (١) من حديث سفيان به ورواه ابن أبي حاتم من حديث سفيان وهو الثوري به وزاد فدخلوا من قبل أستاههم.

–وقال الحسن البصري: ((أمروا أن يسجدوا على وجوههم حال دخولهم)) واستبعده الرازي، وحكي عن بعضهم أن المراد ههنا بالسجود: الخضوع لتعذر حمله على حقيقته.انظر: الآثار الواردة عن السلف في اليهود في تفسير الطبري – (١ / ٩٤).

(٢) لوامع الأنوار البهية: (٢ / ٢٧٦).

وناطق وصامت إلا وهو منقاد إلى مشيئته، غير ممتنع على إرادته، ودلالة على عز الربوبية، وكبرياء الألوهية"[١].

وقد راعى عليه السلام التوحيد في بني إسرائيل مدة إقامته فيهم، فبدأ بنفسه عليه السلام وأهله، وأقام تلك الآيات والنعم السابغة عليه عبادة لله وشكراً له، قال المفسرون: "فيقول تعالى: {ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ} [سورة سبأ:١٣] قال: قولوا الحمد لله، وقيل إنه معنى اعلموا شكراً أنه جزأ الليل والنهار على أهل بيته، فلم تمر ساعة من الليل أو النهار إلا فيها أحد منهم قائم يصلي لله "[٢]، وورد في معناها أنه: قولوا لا إله إلا الله [٣].

قال الشاعر مجسداً أحوال الشكر:

**وشكر ذوي الإحسان بالقول تارة وبالقلب أخرى ثم بالعمل الأسنى**

**وشكري لربي لا بقلبي وطاعتي ولا بلساني بل به شكره عنا[٤]**

ومن أجمع ما رأيت في تفسير الشكر ما ذكره الزحيلي: "اعملوا يا آل داود بطاعة الله، شكراً له على ما أمدكم به من النعم الدينية والدنيوية، وقليل هو الشاكر من عبادي، والشكر في الحقيقة: ليس مجرد الحمد باللسان، وإنما هو استعمال جميع الحواس والأعضاء المخلوقة للإنسان فيما خلقت له من المنافع

(١) البحر المحيط في التفسير (٨/ ٥٢٤).
(٢) الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي – (١٢ / ١٧٦).
(٣) ياقوتة الصراط: (١ / ٤١٤).
(٤) البحر المحيط: (١ / ٣٢٥).

المباحة، والشكور: صيغة مبالغة، وهو الّذي يشكر اللّه في جميع أحواله من الخير والضر"[١].

وجميع ما سبق مرده استخدام داود عليه السلام ما أنعم الله به عليه من الآيات والنعم في عبادة الله وحده لا شريك له، سواءً قلبية أو بدنية.

{وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٥} [سورة النمل:١٥].

ثم بعد ذلك دال الملك لابنه سليمان عليه السلام، وهو ملك عظيم مع النبوة، قال الله تعالى: {وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ١٧} [سورة النمل:١٧] بدأه كوالده عليهما السلام بحمد الله والثناء عليه بما يستحق من المحامد، إذعاناً للجبار جل وعلا الذي وهبهم هذ الملك، قال تعالى:

قال القرطبي: "وروي عن ابن عباس أنه قال: الحمد لله كلمة كل شاكر، وإن آدم عليه السلام قال حين عطس: الحمد لله. وقال الله لنوح عليه السلام: فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين، وقال إبراهيم عليه السلام: الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق. وقال في قصة داود وسليمان: وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين . وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم: وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً، وقال أهل الجنة: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن. وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين، فهي كلمة كل شاكر[٢]".

(١) التفسير الوسيط للزحيلي – (٣ / ٢١٠١).
(٢) تفسير القرطبي – (١ / ١٣٤).

وقال الشيخ ابن سعدي رحمه الله: "{وَقَالا} شاكرين لربهما منته الكبرى بتعليمهما: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ} فحمدا الله على جعلهما من المؤمنين أهل السعادة وأنهما كانا من خواصهم(١)".

**٤- تذكر نعمة الله أثناء حال الرخاء والقوة ثم الإذعان لله بالتوحيد في ذلك الموقف:**

قال عليه السلام لما حُشر جنوده إليه، وأوزعوا، واستعرض قوتهم، ورأى عددهم: {فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾} [سورة النمل:١٩] إذعاناً منه للجبار الذي وهبه هذه القوة، ودينونة له بالتوحيد الذي يورث معتنقه الجنة، علمَ أن هذا الملك زائل، وأن واهبه جل وعلا هو الباقي، دعا عليه السلام متضرعاً بالربوبية – دعا ربه – أن يوفقه لشكره، وييسر له العمل الصالح، وأن يدخله الجنة.

**٥- أثناء حصول الآيات الباهرة لفت الحاضر أن تلك الآية يجب أن يعقبها الطاعة لله في إفراده بالألوهية:**

إذ في قصة سليمان من تحقيقه عليه السلام للتوحيد، ودعوته إليه ما يستحق إفراده في مجلدات، فهو عليه السلام ملك ونبي، والأحداث التي حصلت له مع بني إسرائيل وغيرهم أحداث عظيمة، وكلما مر حدث من تلك الأحداث استوقف التوحيد نبيَّ الله عليه السلام وأذّن به، قال عليه السلام بعد أن جيء له بعرش ملكة اليمن بسرعة أذهلت الألباب وأحارت العقول: { هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ

(١) تفسير السعدي – (١ / ٦٠٢).

ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٞ ﴿٤٠﴾} [سورة النمل:٤٠].

قال أبو حيان: "تلقى سليمان النعمة وفضل الله بالشكر، إذ ذاك نعمة متجددة، والشكر قيد للنعم. و {أأشكر أم أكفر} في موضع نصب {ليبلوني} وهو معلق، لأنه في معنى التمييز، والتمييز في معنى العلم، وكثير التعليق في هذا الفعل إجراء له مجرى العلم، وإن لم يكن مرادفا له، لأن مدلوله الحقيقي هو الاختبار{ومن شكر فإنما يشكر لنفسه} أي ذلك الشكر عائد ثوابه إليه، إذ كان قد صان نفسه عن كفران النعمة، وفعل ما هو واجب عليه من شكر نعمة الله عليه {ومن كفر} أي فضل الله ونعمته عليه، {فإن ربي غني} عن شكره، لا يعود منفعتها إلى الله، لأنه هو الغني المطلق الكريم بالإنعام على من كفر نعمته" (١).

ولا شك أن المال والجاه والقوة مدعاة للفتنة، وقد فهم سلميان عليه السلام هذا، ففي مواضع كثيرة من القرآن الكريم يتذكر نعمة ربه عليه بالقوة والمال فيعقبها الشكر والحمد.

قال الشيخ رشيد رضا رحمه الله: "القاعدة الأساسية للقرآن في المال أنه فتنة، أي اختبار وامتحان للبشر في حياتهم الدنيوية من معايش ومصالح، إذ هو الوسيلة إلى الإصلاح والإفساد، والخير والشر والبر والفجور وهو مثار التنازع والتنافس في كسبه وإنفاقه، وكنزه واحتكاره وجعله دولة بين الأغنياء وتداوله في المصالح والمنافع بين الناس.

قال الله عز وجل: {* لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ} [سورة آل عمران:١٨٦]، وقال حكاية عن نبيه سليمان عليه السلام حين رأى عرش

(١) البحر المحيط. باختصار (٨ / ٢٤١).

ملكة سبأ مستقرا عنده: { هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٞ ﴿٤٠﴾ } [سورة النمل:٤٠] (١)".

وقد أسلمت على يد سليمان عليه السلام ملكة سبأ كما قص الله ذلك في كتابه الكريم فقال: {قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾} [سورة النمل:٤٤]، فقد هداها الله إلى التوحيد لما رأت الآيات الدالة على نبوته.

قال ابن تيمية رحمه الله بعد أن ساق الآية السابقة: "الإسلام يتضمن الاستسلام لله وحده؛ فمن استسلم له ولغيره كان مشركا، ومن لم يستسلم له كان مستكبرا عن عبادته، والمشرك به والمستكبر عن عبادته كافر، والاستسلام له وحده يتضمن عبادته وحده وطاعته وحده. فهذا دين الإسلام الذي لا يقبل الله غيره؛ وذلك إنما يكون بأن يطاع في كل وقت بفعل ما أمر به في ذلك الوقت (٢)".

وكانت خاتمة التوحيد والدعوة إليه بما يتعلق بهذا النبي الكريم عليه السلام هو أن جعله الله بعد موته دليلاً على وجوب إفراد الباري عز وجل بالعبادة، فبين لقومه من الجن أنه وإن قويت شوكت أحد وعظم سلطانه ودعا إلى توحيد ربه في حياته، أنه يموت ويبقى وجه ربك، قال تعالى: {فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا

(١) تفسير المنار – (١١ / ٢٢٣).
(٢) العقيدة التدمرية – (١ / ٦٨).

دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾} [سورة سبأ:١٤].

وهذه الآية فيها من دلائل التوحيد وإقامته الشيء العجيب، فقد مكث إلى زمن موته داعياً إلى إفراد الله بالعبادة، ثم لما توفاه الله أمام قومه لم يعلموا بذلك، ليبين لهم أن المدعو هو الباقي، وأن الدعوة يجب أن تتم حتى لو مات الداعي، وأنه مهما عظم ملك الرجل وسلطانه فيجب عبادة من وهبه الملك والسلطان، لا خوفاً ممن أوتي الملك، بل رهبةً ممن آتى الملك ووهبه.

وفيها لفتة كريمة إلى ضعف الجن وعدم معرفتهم علم الغيب، ولفتهم إلى ذلك المعنى الدقيق، فدابة الأرض كانت أقوى منهم موقفاً وأعلم منهم بموت سليمان ولو كان حيًّا لما تجرأت على ذلك وجنده الإنس والجن والطير.

أما يونس عليه السلام، فهو نبي كريم أرسله الله تعالى إلى أهل نينوى[١]، وهو النبي الذي حكى الله في كتابه الكريم كيف ألح بالتوحيد حتى نجاه الله من الغم، قال تعالى: { وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ } [سورة الأنبياء:٨٧].

قال أبو حيان: "وأَنْ فِي أَنْ لَا إِلهَ إِلَّا أَنْت تَفْسِيرِيَّةٌ لِأَنَّهُ سَبَقَ فَنادى وهُوَ فِي مَعْنَى الْقَوْلِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ التَّقْدِيرُ بِأَنَّهُ فَتَكُونُ مُخَفَّفَةً مِنَ الثَّقِيلَةِ حَصْرَ الْأُلُوهِيَّةِ فِيهِ تَعَالَى ثُمَّ نَزَّهَهُ عَنْ سِمَاتِ النَّقْص ثُمّ أَقَرَّ بِمَا بَعْدَ ذَلِكَ"[٢].

---

(١) نينوى القديمة والحديثة بالموصل في العراق. أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (ص: ٢٧).

(٢) البحر المحيط في التفسير (٧/ ٤٦١).

ثم نختم الأنبياء الكرام بالمسيح عليه السلام، الذي بدأ حياته بعبادة الله، وبدأ نبوته بالدعوة إلى عبادة الله، وختم حياته داعياً إلى توحيد الله بالعبادة.

وقد بين الله تعالى أن دعوة المسيح كدعوة إخوته من أنبياء بني إسرائيل، دعوة لتوحيد الله بالعبادة لا شريك له، قال تعالى: {وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾} [سورة المائدة:٤٦].

وقد بدأت حياته بنطقه بكلمة التوحيد المتضمنة إفراد الله بالعبادة {قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾} [سورة مريم:٣٠] فكانت أولى آياته هي النطق بكلمة التوحيد، والاعتراف بعبودية الله جل وعلا لا شريك له، مؤذّناً بذلك بين القوم الذين ضلوا وأضلوا، معلناً وجوب الألوهية لله وحده لا شريك له في متقدمي أهل الملة التي ضل أتباعها فيما بعد عن الحق واتبعوا الهوى، فكما أن هؤلاء القوم ادعوا له الألوهية كان الحجة الدامغة عليهم قبل دعواهم هي ولادته متجرداً لله تعالى من دعواهم، وموحداً له بين أظهرهم وعلى مسامعهم.

وعاش عمره موحداً لله تعالى ومصوباً لضلال بني إسرائيل الذين ضلوا عن الهدى، قال جل وعلا: {إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾} [سورة الزخرف:٦٤]، فأكد لهم عليه السلام أن الله ربه وربهم، فلا مجال فيما بعد ذلك لادعائهم ألوهيته أو صرفهم له شيئاً من أنواع الألوهية من استغفار أو تبرك أو سجود أو غير ذلك.

وهو رسول من الرسل الكرام أولي العزم، الذين أرسلهم الله جل وعلا إلى بني إسرائيل لتحقيق التوحيد لله لا شريك له، قال تعالى: {إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾} [سورة الزخرف:٥٩] وحياة هذا الرسول عليه السلام كانت حافلة بالأحداث مع قومه، ابتداءً من ولادته ثم نطقه بالتوحيد والنبوة، ثم تبليغه لقومه التوحيد، حيث إن بني إسرائيل لما تنكروا للتوحيد، وهموا بقتله عليه السلام وأحس بذلك المكر قال: {فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾} [سورة آل عمران:٥٢]، وكان الجواب من الحواريين رضي الله عنهم بأنهم أنصار الله، واستشهدوه على إسلامهم، وذلك كله كان تمهيداً لرفعه إلى السماء ونجاته من الصلب، وتخليصه من المكيدة التي خطط لها قومه.

ولما كانت ولادته وحياته ومماته نوعاً فريداً من خلق الله وآياته للناس فهو آخر أنبياء بني إسرائيل، وجمع فيه من الصفات ما لم يجتمع في غير نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

وبه خففت الشرائع عن بني إسرائيل، وجمعت الآيات لكن لم يجد ذلك فيهم، واتخذوه هو إلهاً بدلاً من عبادة من أرسله، يقول تعالى:{مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾} [سورة المائدة:٧٥].

تدلان على رفع الألوهية، ومساواة الجنس، ثم ختم هذا الاستنباط العظيم بأكل الطعام، بكافة ما يترتب عليه من الحاجة للجوع والإخراج وبناء الجسم وغيرها [1]، و"كيف ينسبونهما إلى الألوهية مع أنهما قد كانا بشرين مركبين يَأْكُلانِ الطَّعامَ ليكون بدلاً بما يتحلل، وإلاله مطلقاً: منزهٌ عن التركيب والتحليل والأكل والشرب والبنوة والأبوة والأمومة وغيرها من أوصاف البشر"[2].

وقد أشار بعض المفسرين إلى لطيفة جميلة في نفي الألوهية التي ادعاها النصارى، أن البشارة بكهولته تدل على طول امتداد عمره حتى الكهولة، وعلى أنه يتغير كسائر البشر[3].

ثم حصلت قصة الرفع بعد محاولة الصلب، ونجاه الله تعالى من المكيدة العظيمة كما قال تعالى: {وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾} [سورة النساء:١٥٧].

وتحقيقاً للتوحيد الذي وعد الله أهله بالتمكين، يقول جل وعلا: {وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾} [سورة الزخرف:٦١] يقول ابن كثير رحمه الله: "ثم المراد بذلك نزوله قبل يوم القيامة، كما قال تبارك وتعالى: {وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾} [سورة النساء:١٥٩]، أي: قبل موت عيسى عليه الصلاة

(١) أشار لهذه المعاني النفسي في مدارك التنزيل ٤٦٦/١.

(٢) الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية ١/ ٢٠١ .

(٣) انظر: لباب التأويل للخازن ٢٤٦/١.

والسلام، ويؤيد هذا المعنى القراءة الأخرى: "وإنه لعَلَم للساعة " أي: أمارة ودليل على وقوع الساعة" [١].

وهذا السياق القرآني العظيم يوضح أن رسالة المسيح عليه السلام هي في سياق تقرير عبادة الله وحده لا شريك له لم تنته بعد، وسيعود بالتوحيد الخالص لله، ليحقق ما وعده به النبي محمد ﷺ من آيات، وليبطل ما ادعاه بنو إسرائيل من الأباطيل على ما أرسل به من الديانة، وليبين أن دعوته هي دعوة إخوانه من الأنبياء عليهم السلام.

ثم في القرآن الكريم نصٌّ كريم اختص به المسيح دون سائر البشر، يبين أن دعوته للتوحيد كانت كإخوانه الأنبياء لكن الافتراء الذي اقترف عليه ليس كغيره، ولذلك برأه هذا النص العظيم، يقول تعالى: {وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾} [سورة المائدة:١١٦]، ثم يبين ما أمرهم به من التوحيد، وشهادته عليهم بذلك، في قوله: {مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾} [سورة المائدة:١١٧]، قال أبو حيان: "أَخْبَرَ أَنَّهُ لَمْ يَتَعَدَّ أَمْرَ اللَّهِ فِي أَنْ أَمَرَ بِعِبَادَتِهِ وَأَقَرَّ بِرُبُوبِيَّتِهِ. وَفِي قَوْلِهِ: رَبِّي وَرَبَّكُمْ بَرَاءَةٌ مِمَّا ادَّعَوْهُ فِيهِ"[٢].

---

(١) تفسير ابن كثير / دار طيبة – (٧ / ٢٣٦).

(٢) البحر المحيط في التفسير (٤/ ٤١٧).

قال ابن عطية في تفسير قوله تعالى قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم: "واتخاذ بعضهم بعضاً أرباباً هو على مراتب:

- أعلاها اعتقادهم فيهم الألوهية وعبادتهم لهم على ذلك، كعزير وعيسى ابن مريم، وبهذا فسَّر عكرمة.
- وأدنى ذلك طاعتهم لأساقفتهم ورؤسائهم في كل ما أمروا به من الكفر والمعاصي والتزامهم طاعتهم شرعاً، وبهذا فسَّر ابن جريج.

فجاءت الآية بالدعاء إلى ترك ذلك كله" (١).

وهذا خاتمة الكلام عن رسل بني إسرائيل ودعوتهم للتوحيد عليهم السلام، وخاتمة الأمر هذه الآية الكريمة: { شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِىٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِىٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾} [سورة الشورى:١٣].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بعد استقصائه لآيات دعوة الرسل إلى التوحيد: "هذا دين الأولين والآخرين من الأنبياء وأتباعهم هو دين الإسلام، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وعبادته تعالى في كل زمان ومكان، بطاعة رسله عليهم السلام، فلا يكون عابداً له من عبده بخلاف ما جاءت به رسله"(٢).

**

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ٤٤٩).

(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية (١/ ٨٣) .

## الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

تناول هذا البحث ما تضمنته الآيات الكريمات عن رسل بني إسرائيل في أعظم جوانب الرسالة وهو تقرير توحيد الله الخالص، توحيدَ الألوهية، وقد استعرضت ما ورد في القرآن الكريم من تلك السياقات واستخلصت منها ما يلي:

١. أن توحيد الألوهية هو التوحيد الذي أُرسِل لتحقيقه كافةُ الأنبياء والمرسلين إلى أممهم، وهذه هي أهم ما حاولت أن أضعه في الاستقصاء في سياق البحث.
٢. أن دعوة رسل بني إسرائيل كانت قائمة على تقرير هذا التوحيد والدعوة إليه مثل من سبقهم من الأنبياء الكرام عليهم السلام، ولا يوجد نبي من الأنبياء الكرام إلا وكانت هذه رسالته مع تعدد الطرائق والشرائع المحققة لهذا الأصل العظيم.
٣. تم استقصاء منهج أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام في القرآن الكريم للاستدلال على منهجهم في تحقيق توحيد الألوهية في أممهم مع اختلاف الطرائق والوسائل بحسب مقتضى الحال المناسبة.
٤. كما اتضحت الصورة الموحدة لمنهج الأنبياء في تحقيق هذا التوحيد، متوافقةً مع ما دعا إليه خاتمهم عليهم الصلاة والسلام؛ وذلك لربط سلسلة الأنبياء بخاتمهم عليه السلام وتلك الصورة العامة لتلك الجماعة الكريمة من الأنبياء عليهم السلام تبين حقيقة دعوتهم التي أرسلوا من أجلها.

## فهرس المصادر والمراجع


١. الآثار الواردة عن السلف في اليهود في تفسير الطبري. الحوشان، يوسف بن حمود، ط١، د.م، دار ابن الجوزي، د.ت

٢. أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، البشاري، محمد بن أحمد المقدسي، الطبعة الثالثة، القاهرة، الناشر: مكتبة مدبولي، ١٤١١/١٩٩١.

٣. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ابن مصطفى، أبو السعود العمادي محمد بن محمد (المتوفى: ٩٨٢هـ)، د.ط، بيروت، الناشر: دار إحياء التراث العربي، د.ت.

٤. البحر المحيط في التفسير، الأندلسي، أبو حيان محمد بن يوسف (المتوفى: ٧٤٥ هـ)، المحقق: صدقي محمد جميل، د.ط، بيروت، الناشر: دار الفكر، ١٤٢٠هـ.

٥. تفسير ابن كثير – ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر (المتوفى: ٧٧٤هـ)، المحقق: سامي بن محمد سلامة، الطبعة: الثانية، د.م، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩ م.

٦. تفسير الراغب الأصفهاني، بن محمد، القاسم الحسين المعروف بالراغب الأصفهانى (المتوفى: ٥٠٢هـ)، تحقيق ودراسة: د. هند بنت محمد بن زاهد سردار، الطبعة الأولى، الناشر: كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١ م

٧. تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، المؤلف: ابن إدريس، عبد الرحمن بن محمد (المتوفى: ٣٢٧ هـ)، المحقق: أسعد محمد الطيب، الطبعة: الثالثة، د.م، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية، ١٤١٩هـ.

٨. تفسير المنار. الحسيني، محمد رشيد رضا (المتوفى: ١٣٥٤هـ)، د.ط، د.م، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة النشر: ١٩٩٠ م.

٩. التفسير الوسيط – الزحيلي، د وهبة بن مصطفى، الطبعة: الأولى، دمشق، الناشر: دار الفكر، ١٤٢٢هـ.

١٠. تلبيس إبليس، بن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج (المتوفى: ٥٩٧هـ)، الطبعة: الطبعة الأولى، بيروت، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر، لبنان، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

١١. التوضيح عن توحيد الخلاق في جواب أهل العراق، ابن عبد الوهاب، سليمان بن عبد الله بن محمد، الطبعة: الأولى، الرياض، الناشر: دار طيبة، المملكة العربية السعودية، د.ت.

١٢. تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، التميمي، سليمان بن عبدالله، تحقيق: زهير الشاويش، الطبعة: الأولى، بيروت، دمشق، الناشر: المكتب الاسلامي، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

١٣. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، المؤلف: السعدي، عبد الرحمن بن ناصر (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الطبعة: الأولى، د.م، الناشر: مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠ م.

١٤. جامع البيان في تأويل القرآن، المؤلف: الطبري، محمد بن جرير (المتوفى: ٣١٠ ç)، المحقق: أحمد محمد شاكر، الطبعة: الأولى، د.م، الناشر: مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ تفسير القرطبي.

١٥. الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية، تحقيق: علي بن حسن، وآخرون، الطبعة: الثانية، د.م، الناشر: دار العاصمة، السعودية، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م.

١٦. الدر المنثور في التفسير بالمأثور، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١ هـ)، د.ط، بيروت، الناشر: دار الفكر، د.ت.
١٧. الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١ هـ)، د.ط، بيروت، الناشر: دار الفكر، د.ت.
١٨. روح المعاني، الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني (المتوفى: ١٢٧٠هـ)، المحقق: علي عبد الباري عطية، الطبعة: الأولى، بيروت، الناشر: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ.
١٩. صحيح البخاري – البخاري، محمد بن إسماعيل، تحقيق / محمد زهير بن ناصر الناصر، الطبعة: الأولى، د.م، الناشر: دار طوق النجاة، ١٤٢٢هـ.
٢٠. صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان – الهندي، محمد بشير بن محمد بدر الدين السهسواني (المتوفى: ١٣٢٦هـ)، الطبعة: الثالثة، د.م، الناشر: المطبعة السلفية، د.ت.
٢١. الضياء الشارق في رد شبهات الماذق المارق، المؤلف: ابن سحمان، سليمان، المحقق: عبد السلام بن برجس،، الطبعة: الخامسة، الرياض، الناشر: رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء، المملكة العربية السعودية، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٢م.
٢٢. العقيدة التدمرية – شيخ الإسلام ابن تيمية – المحقق: د. محمد بن عودة السعوي، الطبعة: السادسة، الرياض، الناشر: مكتبة العبيكان، ١٤٢١هـ.
٢٣. عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، ملكاوي، د محمد أحمد، الطبعة: الأولى، د.م، الناشر: مكتبة دار الزمان، ١٤٠٥ هـ- ١٩٨٥م.
٢٤. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية، الشوكاني، محمد بن علي، الطبعة: الأولى، دمشق، بيروت، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب ١٤١٤هـ.

٢٥. الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية، النخجواني، عمة الله بن محمود، ويعرف بالشيخ علوان (المتوفى: ٩٢٠هـ)، الطبعة: الأولى، الغورية، مصر، الناشر: دار ركابي للنشر، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٢٦. لباب التأويل. أبو الحسن، علاء الدين بن محمد، المعروف بالخازن (المتوفى: ٧٤١ هـ)، المحقق: تصحيح محمد علي شاهين، الطبعة: الأولى، بيروت، الناشر: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ.

٢٧. لوامع الأنوار البهية، شمس الدين، أبو العون السفاريني الحنبلي (المتوفى: ١١٨٨ هـ)، الطبعة: الثانية، دمشق، الناشر: مؤسسة الخافقين ومكتبتها ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.

٢٨. مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية – المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، د.ط، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، عام النشر: ١٤١٦هـ.

٢٩. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، المحاربي، عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي (المتوفى: ٥٤٢هـ) تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الطبعة: الأولى، بيروت، الناشر: دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ.

٣٠. مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة – الجوزية، محمد بن أبي بكر ابن قيم (المتوفى: ٧٥١هـ)، اختصره: ابن الموصلي (المتوفى: ٧٧٤ هـ)، المحقق: سيد إبراهيم، الطبعة: الأولى، القاهرة – مصر، الناشر: دار الحديث، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.

٣١. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين – الجوزية، محمد بن أبي بكر ابن قيم (المتوفى: ٧٥١هـ)، المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي، الطبعة: الثالثة، بيروت، الناشر: دار الكتاب العربي، ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م.

٣٢. مدارك التنزيل – النسفي، أبو البركات عبد الله بن (المتوفى: ٧١٠هـ)، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، الطبعة: الأولى، بيروت، الناشر: دار الكلم الطيب، ١٤١٩هـ– ١٩٩٨م.

٣٣. المستدرك على الصحيحين، المؤلف: النيسابوري، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الطبعة: الأولى، بيروت، الناشر: دار الكتب العلمية، ١٤١١هـ – ١٩٩٠م.

٣٤. المطلب الحميد في بيان مقاصد التوحيد. آل الشيخ، عبد الرحمن بن حسن (المتوفى: ١٢٨٥هـ)، الطبعة الأولى، د.م، الناشر: دار الهداية للطباعة والنشر والترجمة، ١٤١١هـ – ١٩٩١م.

٣٥. المفيد في مهمات التوحيد، للدكتور عبد القادر بن محمد عطا صوفي، الطبعة: الأولى، د.م، دار الأعلام، د.ت.

٣٦. ياقوتة الصراط – بن عبد الواحد، محمد، المعروف بغلام ثعلب (المتوفى: ٣٤٥هـ)، المحقق: حققه وقدم له محمد بن يعقوب التركستاني، المدينة المنورة– السعودية، الطبعة: الأولى، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، ١٤٢٣هـ– ٢٠٠٢م.

* * *